تحدِّي الأشلاء والاقتدار باللَّمِ واللَّملمة

نادرة شلهوب-كيفوركيان، فلسطين

تعتمد هذه الورقة على مَحورة مقاومة أهلنا في غزة عند لملمة أشلاء أحبتهم، وهو ما أطلق عليه "الاقتدار باللملمة"، والتعلُّم من قوة رفضهم للإماتة اللامتناهية بغية تحليل تحديات العمل الاجتماعي في فلسطين. تطرح الورقة قراءةً وكتابةً من الأشلاء لتناقش الصعوبات في طرح مسارات تدخُّل اجتماعية حيث التوحش والوحشية في عنف الدولة، وعملها في الإبادة الفعلية، حيث القتل والتنكيل هو القاعدة وليس الاستثناء. ولذا أبدأ بطرح مفهوم الأشلاء والتوحُّش، والتنظير حول الأشلاء كمفهوم يسلِّط الضوء على التشابك بين اللحم/ الأشلاء، ودم الجسد في الجغرافيا السياسية الفلسطينية والعالمية للعرق والحرب والإمبراطوريات. ثم أركِّز على قراءة إصرار أهل غزة على التحدث عن الأشلاء لتساعدني نقدياً في فهم كيفية تأثير (العمل السياسي-المعرفي) لمشاهد التقطيع العنيف للأجساد على الحياة (أو اللا-حياة)، وتكثيف الإماتة في حرب الإبادة، لتشهد الأشلاء وأصوات ململيها على إرهاب الدولة. ومن ثم أنتقل إلى تفكيك تأثيرات ذلك النفسية-الاجتماعية، للتأكيد على أن كشف الحقيقة والاشتباك مع الواقع، بإنسانية ووضوح فكري، إنما هو مقاومة لشتى أساليب الإماتة، وتأكيد على السيادة على الفكر والإحساس والذات والكيان الجمعي-العائلي والأرض والجسد الفلسطيني. وأختتم الورقة بالتأكيد على أن سرديات أهلنا في مقاومة التشليء اللا-متناهي، والتي من خلالها تتمُّ حماية حياتية المستقبل الفلسطيني، إنما تطرح دروساً أخلاقية تفرض على العاملين في مجال الخدمة الاجتماعية تصويب طاقاتهم لإبراز مكامن القوة الفردية والاجتماعية، ليعيدوا مَركَزة ما أسميه بـ "أخلاقيات الحياة" في صون الكرامة والدفاع عن إنسانيتنا وفتح المجال لبناء مستقبل كريم يساهم في تطوير دفيئة في لملمة الأشلاء، وإضعاف التوحش الاستعماري الاستيطاني.

في تحدِّي الأشلاء

ما نراه اليوم في واقعنا الفلسطيني السياسي - الاجتماعي والجسدي - النفسي هو عمل محكم للمنظومة الاستيطانية - الاستعمارية في تقطيع الأواصر الجسدية-الجغرافية، من تشليء لا متناهٍ (fragmentation, uprooting, and

*نص المحاضرة الافتتاحية لـ"مؤتمر الخدمة الاجتماعية النقدية في فلسطين"، جامعة بيت لحم، فلسطين، 25 نيسان 2025

dismemberment). هنا تبرز حاجتنا للقراءة من خلال الأشلاء الجغرافية-الجسدية، وخاصة في سياقنا الفلسطيني عندما تحوِّل الدولة الاستعمارية الاستيطانية تشظِّيات الجسد، وشرذمة العائلة، والمكان، والحيِّز، والمخيم، والسجن، والمقبرة، والمدرسة، والبيت، والطريق، والمشرحة، والجنازة، والشاهد، والمستشفى، والجامعة، وحتى سماتنا وملامحنا كمجتمع (في هندستهم للعقول والمجتمع) إلى أحياز إماتة ومقابر جماعية حية، تُستجمع فيها الأشلاء المتناثرة. وهنا أتساءل: كيف لنا أن نجترح تفكيراً أو انخراطاً أو انضماماً مقاوماً للمحو ورافضاً له؟

فكيف لي أن أفهم، أو أن استوعب، أو أتعامل شخصياً ومهنياً، أو أن أكتب كباحثة وأخصائية في الصحة النفسية-المجتمعية عن مشهد أُم بقيت لأيام تلملم أشلاء أبنائها خوفاً من أن تأكلها القطط، قائلة: "رُحت أجيبلكوا أكل يَمَّا... رجعت ألملم أشلاءكم..." أو كيف أصف مشهد أب لملم أشلاء أولاده صارخاً: "يا ناس هذول ولادي" حاملاً إيَّاهم في أكياس بلاستيكية، أشلاءً، ليؤكد أنهم أولاده؟ كيف لنا، كمجتمع أخصائيين، أن نستوعب أشلاء أحبائنا بعد حرقهم أمام أعيننا، أو تطاير أجسادهم بسبب توحش المستعمر الصهيوني؟

كيف أتعامل مع تشليئ الجسد الفلسطيني ومحاولات تشليئ الكل الفلسطيني، للجسد المقطَّع والمشظَّى، كجغرافيتنا الفلسطينية المشلَّأة حيث نسمع أصوات الفلسطينيين في الأشلاء المتبعثرة والمستعمَرة والمجزأة والمدماة وهي تنزف يتماً إنسانياً عالمياً؟ كيف عليَّ ربط الأشلاء بسياسات الحيز الممزَّق في المنظومة الاستعمارية، حيث الخرائب (ruins)، والهدم، وقلب البيوت والبُنى والشوارع إلى ركام، والأجساد إلى أشلاء كرأس مال سياسي بيد المستعمر؟ كيف أقرأ الأشلاء لتشكِّل لي نماذج تحليلية (براديغمات) تربط بين الجسدي/ المشلأ الزماني والمكاني والنفسي-الاجتماعي في فلسطين من ناحية، وكيف لي أن أُأسس للمشاهد المبعثرة لأشلاء الجسد ولملمته، حيث يُبدع اقتدار الفلسطيني في لملمتها واحترام قدسيَّتها، للمِّ شمله، وبالتالي لملمة شملنا النفسي، والاجتماعي، والجيو-سياسي من الناحية الأخرى.

وفي المقابل، كيف نتدخل ونؤثِّر، نحن الأخصائيين الاجتماعيين والعاملين في مجال الصحة النفسية، في لمِّ الشمل المجتمعي-النفسي-الجسدي لتفكيك الاقتلاع اللا-متناهي في واقع إبادة مستمرة حيث تتكثّف تحيزات الإبستمولوجيا والأنتولوجيا الكولونيالية التي تؤطر التشليء من خلال المنظومة الفكرية التي يفرضها السياق الحداثي الغربي، كما يعلمنا والتر مينيولو Walter Mignolo، فيأتي د. ياسر أبو جامع، أخصائي الخدمة الاجتماعية/ النفسية، من غزة ليذكِّرنا أن استمرار التشلي والتشظِّي هو وباء نفسي-اجتماعي (من صناعة "البشر") صامت سيؤثر علينا لأجيال؟

فبين الجسد المشلّأ والمُدمى، والجغرافيا المليئة بالبنى المُفجَّرَة، وبالخرائب والفراغات، تُنتَج معانٍ وتستهلك أخرى، كيف لنا أن نحميَ مجتمعنا من الهندسة الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والنفسية العاملة على تحويل كياننا إلى أشلاء وخرائب وفراغات، وتعمل على محو عائلات بأكملها، وبتر المجتمع وتشويهه؟ تعمل هندسة وفيزياء منظومات الإبادة المتعددة وتكنولوجيات مثل (Where's Daddy & Straw Widow, Lavender and

the Gospel, and Dumb) على إنتاج إرباك وفوضى حواس، وتخلق ميلانكوليا دمار في الإبادة؟ كيف لنا فهم سياسات الاقتلاع حتى من الجسد ومحاولات الإخضاع للمنظومة الاستيطانية العنصرية؟

إن هذه الأشلاء النازفة وركام الخراب والتشظّي الجغرافي، والتغيير الممنهج في هندسة الإماتة، والتقطيع الاجتماعي المرئي والصامت، تشغل حيزاً مركزياً ومحورياً في إنتاجي المعرفي، منسوجة في تراكمية التفاصيل والسرديات والحكايات لأجساد وتاريخ وجغرافيا فلسطين واليوم-يوم الفلسطيني. إن كل ما ذكرته يشكّل أساساً في التحليل المتأصِّل حتى لو هُمِّش وشُوِّه وأُخرِجَ من النظام العالمي والعلمي، كما برز في خطابات رئيس وزراء الاحتلال نتنياهو ورعاياه المستوطنين، وفي الأصوات المتواطئة لأساتذة الخدمة الاجتماعية، والطب، وعلم الإجرام، والقانون، وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، المؤيدين للعنف ودعم الإبادة.

وفي هذا السياق، يتماهى تنظيري حول الأشلاء كمفهوم، مع مصطلح الجيو-كوربوجرافيا (عند جوزيف بوغلييزي Joseph Pugliese) ليسلِّط الضوء على التشابك العنيف بين لحم/أشلاء ودم الجسد في الجغرافيا الفلسطينية الممزَّقة والاقتصاد-السياسي العالمي للعرق والحرب والإمبراطوريات.[1] كما وأن تركيزي على قراءة إصرار أهل غزة على التحدث عن الأشلاء يساعدني نقدياً على فهم العمل السياسي-المعرفي لمشاهد التقطيع العنيف للأجساد على الحياة أو اللا-حياة، وتكثيف الإماتة overkilling. فمن خلال تنظيري لماكنة الإبادة في الأشلاء، والتي تُستخدم عند الغازي للتأكيد على "حيونة" الفلسطيني ولا-أنسنته، وحق الصهيوني في "الدفاع عن نفسه"، أرى قوة المقاومة، الرفض وثقله عند الفلسطيني/ الغزّي، وتحرك أهلنا في غزة لفعل اللَّملمة، وأرى احترامهم وتأكيدهم على كونهم: أماً، وأباً، وإنساناً، والتأكيد على الحق في الكرامة، والحق في الموت حتى ولو كان مشلّاً، لكنه يستحق الدفن الكريم. إن فعل اللَّملمة والدفن للأشلاء هو عملية تحرر من القمع، ورفض للتوحش، نعم، فرفض أهلنا في غزة لوحشية الإبادة، هو مركز تحليلي في هذا السياق. إن اللَّملمة الغزيَّة لبقايا الجسد تعتبر بمثابة قوة داخل-وجدانية، تعيد خلق توازن نفسي، وتستعيد الذات الفلسطينية الفردية والجمعية، لا لأن الفلسطيني ضحية، بل كفعل مقاوم ورافض للمحو.

يأتي تحليل كثافة الإماتة overkilling للتعبير عن كثافة التحرر، أرضاً ومجتمعاً، من خلال اللَّملمة، يمكِّن الفلسطيني من انتزاع السيطرة على شؤون حياته وموته، وإعلان سيادته على الجسد والأرض، وبالتالي تفكيك البنية العسكرية والمؤسساتية للمستعمِر، وتغيير المزاج الشعبي للحفاظ على قدرة المقاومة والتعبير عن الذات الفاقدة والمتألمة والحاضنة لشهدائها، وأسراها، وأطفالها. هنا، أَصل إلى موضوع مداخلتي اليوم، لأطرح ثلاثة تساؤلات تحليلية مرتبطة بالتشليء، وهي: الأول، كيف يمكن فهم هذا التوحش ضدَّ من هو حيٌّ، ومن هو مشلّاً؟ والثاني، ما هو دور مركَزة الأشلاء والتوحش في التحليل المعرفي؟ والثالث، ما هو دور العاملين في الصحة النفسية انطلاقاً من مَركزة ولملمة الأشلاء لبناء الاقتدار المجتمعي في ظل الإبادة؟

فهم التوحش ضدَّ من هو حي ومن هو مشلأ

من أجل فهم التوحش ضدّ من هو حي ومن هو مشلّأ لا بدَّ من طرح المزيد من الأسئلة: ما هو دورنا الإبستيمولوجي في إنتاج معرفة مسؤولة واضحة تقرأ وحشية الدولة وتتعمق في قراءة رفض أهل غزة للتوحش؟ وكيف تكون بوصلتنا الأخلاقية مجذَّرة وموجَّهة نحو تحرير الخوالج من الغثيان والألم عند اللَّملمة، بأصوات الأم والأب وأفعالهما؟ وكيف نكون مرتبطين بأهلنا في غزة وطولكرم، وجنين، والخليل، ونابلس، والقدس المحتلة... وغيرها، وباحثين متسائلين عن إجابات لأجيالنا الصامدة، ومستقبلنا، في ظلِّ سياسات الإماتة والوحشية اللامتناهية؟ وكيف نفهم فلسطين ونكبتها المستمرة حين نقرأ هذه الوحشية وفظائعها حيث تبدأ نقطة انطلاقنا الزمنية مع بدء المشروع الاستعماري الاستيطاني وجرائمه اللامتناهية؟ كيف نقرأ التوحش في التفخيخ البشع للإنسان، والبيوت، والمدارس، والمستشفيات، والجامعات، والمخابز، والمكتبات؟ وكيف نقرأ تعذيب الأسرى في سجون الاحتلال الوحشية، وقتل الأطفال وتقطيعهم وترهيبهم؟ كيف نقرأ النساء الحوامل والنساء الوالدات في مخيمات اللجوء؟ كيف نفهم ونحتوي طاقاتنا المنهَكة واللا مستوعبة لكمِّ الألم؟

وحتى لا نفقد اللغة، وقدرتنا، المنهَكة بالفقدان واليتم اللا متناهي، قررت اليوم مشاركتكم في مشروعي الفكري لفهم "التوحش في الأشلاء، والاقتدار باللَّملمة". ترتكز القراءة من الأشلاء لتوطين المعرفة على فرانز فانون Frantz Fanon في نقاشه العنف الكولونيالي، وتفكيك دقة ديناميكيات العنف التي أرساها الاستعمار لإخضاع الشعوب، فيكتب في **معذبو الأرض** (1961): "ليس الاستعمار آلةً مفكِّرة، ولا جسداً يتمتع بملكات المنطق. إنه العنف في حالته الطبيعية."[2] بالنسبة لفانون، العالم الاستعماري ينزع الإنسانية عن الأصليين، ويحوِّلهم إلى حيوانات. الاستعمار الاستيطاني وقراءته من خلال الأشلاء يفضح كيفية تأطير المستعمِر للفلسطيني، والإنكار المنهجي لصفاته الإنسانية. فالقراءة من الأشلاء هي قراءة توحُّش شامل ومنتشر ودائم وكلي، محلي وعالمي، يتماهى مع تحليل فانون. فكما أشار حسين عبد الله بولحن في **فرانز فانون وسيكولوجيا المضطَّهدين** (1985)،[3] فإن هذه القراءة تؤكد حقيقة أن الاستعمار، شأنه شأن من يديره ويحرِّك آلته العنيفة، لا يتأثر بالمنطق، ويرفض بعناد الاعتراف بإنسانية الآخر، مولِّداً بالتالي أعمال عنف لا توصف. ما أقوله هو أن قراءتي النفسية-الاجتماعية من الأشلاء تبرز حالة الاستلاب الدائم في الوطن والجسد والأرض، الاستلاب الذي يهدف إلى تجريد الإنسان الفلسطيني من ذاته (depersonalization) كما أشار فانون.

هنا، أتوجه فكرياً لباحثاتنا الفلسطينيات وباحثينا في المنطق الاستعماري الصهيوني مثل: ريتا جقمان في تنظيرها حول "الجرح الداخلي The wounds inside" لترشد تنظيري،[4] وكتابات ريما حمامي عن "قلق الاستباحة المفرط Hyper-precarity"،[5] وعبد الرحيم الشيخ حول مواجهة المعاناة في قراءة السجن والمخيم والمقبرة،[6] وتنظير صهر الوعي لوليد دقة،[7] وحديث سامرة اسمير عن "جعل الاستعمار ممكناً On making colonization possible"،[8] وقراءتها للمحكمة الصهيونية في فهم مجزرة الطنطورة،[9] وتحليل ناصر أبو رحمة لـ "نهاية اللعبة" الصهيونية،[10] بالإضافة للأعمال حول قوة الرفض الفلسطيني في كتابات رنا بركات،[11] وتنظير باسل الأعرج للمثقف المشتبك.[12]

وهكذا، فإن أهمية القراءة هي قراءة من الجرح، من موطن الجرح، من التشليئ نفسه ليس فقط لتفكيك وحشية المستعمِر وإنما أيضاً لفهم رفض الفلسطيني من أجل الاشتباك مع مواطن القوة.

ولهذا، عند التمعن في تحليل المفكر البيروفي آنيبال كيخانو Aníbal Quijano، ندرك بأن القمع وقع أول ما وقع على آليات المعرفة وإنتاجها، وآليات إنتاج المعاني، وآليات التعبير الرسمية "الموضوعية"، أعقبها فرض استخدام أنماط تحليل وتعبير خاصة بالطغاة، لتخدم معتقداتهم، وتصوراتهم التي يتم استخدامها فقط لمنع الإنتاج الثقافي الحقيقي من قبل المستضعَفين، وكوسائل في غاية الكفاءة للسيطرة الاجتماعية والثقافية. يقول كيخانو إن المستعمِرين فرضوا صوراً مضللة وأنماط إنتاج معرفي وإنتاج معانيَ خاصة بهم لتخدم مصالحهم، ولتعمل بطرق انتقائية مختلفة، وذلك، كما يكتب فانون، حتى يضموا أحياناً بعض المستضعفين، من خلال تدريبهم على إنتاج معرفي مستعمَر، إلى سلطة الطغاة.[13]

إن تنظيري من الأشلاء يرى في الجسد/الأرض المقطعة الفلسطينية بوصلة إدراكية، لأن مركزة الأشلاء تحليلياً تؤكد بأن قراءتي توطِّن اللَّملمة الفكرية-الجسدية-النفسية-الاجتماعية-الجغرافية، وتمركزها في أصوات الفلسطينيين الرافضين للاستعمار الإبادي العامل منذ اللحظات الأولى لنكبتنا على تشويه الفلسطيني على طريق إلغائه. ففي كتابها **الحق في التشويه** (2017) تفكك جاسبير بوار Jasbir Puar أهداف تشويه الأجساد في غزة، وبتر الأطراف، والعنف في مسيرات العودة والحروب، لتكشف لنا استراتيجية تعذيب وتجريح جديدة للجسد الفلسطيني.[14] يمثل تعمق تحليل بوار بالجرح أهمية التحرر بأساليب المعرفة وسيلة لتبيان معانٍ جديدة في معاناة المجروح، وتبوح لنا بأن الهدف من اللا قتل للغزِّيين هو "ألَّا ندعهم يموتوا." فاللافت في طرح بوار هو كشفها للطابع المنتج لسياسة التشويه كشكلٍ من أشكال السيطرة السياسية الحيوية ضمن اقتصاد "إنساني" مُرخَّص علمياً. فبينما يبدو حجب الموت الكامل عن بعض الغزيين، للوهلة الأولى، متعارضاً مع بنية المحو والإبادة كأهداف مركزية في أيِّ مشروع استعماري استيطاني، إلا أنه في الحقيقة يخدم الأهداف التكتيكية للمشروع، ويبدو أكثر ربحيَّة على المستوى الأيديولوجي والاقتصادي من التصفية الفورية.

وبالعودة للنظر إلى الأشلاء فإن تفكيكها يكشف وحشية المستعمِر. وبحسب ما يعرِّفنا أشيل مبيمبي Achille Mbembe، فإن مفهوم الوحشية يدلل على "طريقة لإدارة القوة، وفي ظلها يتوقف القتل عن أن يكون استثناء."[15] ويشرح مبيمبي الوحشية باعتبارها فترة استولى عليها شغف الهدم والإنتاج. وهذا أيضاً ما نراه في كتابات باتريك وولف Patrick Wolfe والذي يطلق عليه "التدمير للاستبدال Destroy to replace".[16] ولهذا، فإن قراءتي من الأشلاء هي تعرية وفضح للغرائز الصهيو-غربية والتي كانت في الماضي، كما أدعوها، "محل مراقبة وسيطرة" من قبل المنظومات والقوانين والمعايير الدولية، إلى أن أصبح التجرُّد من الإنسانية ممارسة عادية، وأصبح التحرك نحو بناء سياسات كالحاجة لتسطيح وتسوية غزة flattening Gaza وتسمية أهلنا في غزة "العماليق" والهجومات والتصريحات العنيفة، ممارسةً شرعية، وصار تشجيع الإبادة مقبولاً، وهيمن البحث عن المختلف/ الآخر اللا-إنساني، وبدأ التحكم وتنظيم من يمكن التخلص منه أو المستباح والمستفاض precarious disposable other

(كما تطلق عليه ريما حمامي وشيرين رزاق)،[17] وذلك مثل حادثة قصف مركز البسمة، وهو أكبر وأقدم عيادة للتلقيح الصناعي في غزة وفُقد 4000 جنين و 1000 أنبوبة نطف، و حادثة ترك الخدَّج للموت في مستشفى النصر للأطفال،[18] وقتل 174 طفلاً ليلة 18 آذار، 2025،[19] بالإضافة إلى الإجهاز على الجرحى وقتل الأسرى... إلى آخر هذه الممارسات حيث تتصرف الوحشية أيضاً على قاعدة تبدُّد وقائع، وتتمثل عملية التبدُّد في إخفاء بشاعة العنف، وخاصة الموت الجماعي مثلاً في مجازر الطحين، وحتى الموت الجزئي، والإهالة اللامتناهية.

قد تساهم القراءة من الأشلاء في إعادة توازن نسبي نفسي-مهني معرفي لنا كإخصائيين اجتماعين يمكننا من فهم ارتباك ردود الفعل مع كمّ الألم والفقدان، وحجم الكارثة الإنسانية. فكيف لنا استيعاب ترك أطفال خدَّج ليستشهدوا في الحاضنة بالمستشفى، أو لملمة أشلاء أطفال طارت على الشجر؟ فالكمّ الهائل من الفقدان وتكثيف القتل والتشليء الفلسطيني أجبر الفلسطينيين، وهم في صدمة الفقدان، على البحث عن طرق وأساليب ليستعيدوا أنفسهم، وأحباءهم، ومجتمعاتهم، وبيوتهم، وحاراتهم... استعادة ما هُدم، وشُظِّي، وشُلِّئ. وهذا ما حدث معي عندما سمعت عبد الله أبو سلطان، الفتى الفلسطيني اللاجئ في رفح، يتحدث عن أشلاء أستاذه، ليعيد لملمة ذاته الفاقدة لأستاذه الغالي، ليكتب كتاباً أسماه "أشلاء".

تطور القراءة من الأشلاء الفهمَ والاستيعابَ والقدرةَ على طرح أساليب تعمل ضدَّ الحرب النفسية-السياسية لتكشف تفاوت ردود الفعل لمن هو في غيبوبة ليحمي نفسه من شعور وقبول ورؤية التشليئ، ومن في وعيه يصبح إدماءً داخلياً وفعلياً، ومن هو في حالة غثيان، ومن هو في حراك لا نهائي لينقذ ما يمكن إنقاذه في داخله وفي مجتمعه وبيته، ومن هو في حالات ضياع، وغضب، وهروب، وحزن، وخبل، وجمود، وتجمد، وشلل... إلى آخره من طرق للقراءة من الأشلاء. ما علَّمني إيّاه عبد الله هو لملمة الطاقات وبناء اقتدار في ظروف إبادية لا إنسانية. وعلى ذلك، فإنني عند طرح مفهوم الاقتدار باللَّم واللملمة أقصد التأكيد على أشكال إعادة السيادة (على الوعي، والنفس، والجسد، والكيان/ الكل/ الحضن الاجتماعي) من خلال بناء عيش/ استمرارية حياتية ضد القوة الإبادية. ينعكس هذا في بناء مساحات عاطفية وسياسية-اجتماعية وفردية لمناهضة الموت والتي تتجسد من خلال تمكين وإنتاج مسارات جديدة لمناهضة القوة والألم والفقدان، كما يفعل عبد الله. تمثل اللَّملمة طاقات استمرار واستمرارية، ليعود الفرد وجماعته إلى الحياة، والتنفس، حتى في ظل الأشلاء والموت المكثَّف. تفتح اللملمة آفاقاً نقدية للحياة في خضِّم الإبادة، وتحمل تقنيات، وسرديات، وملاجئ من الحب، والحفاظ على الكرامة كما قالت ميس، وهي أم غزاوية فقدت اثنين من أبنائها وزوجها، واستمرت في إرضاع مولودتها واحتضان ابنها بالرغم من قسوة الفقدان، وقالت: "حتى ألملم حالي... وما أنجنّ."

إن اللَّم واللَّملمة، كما أراها، هي مسارات وأعمال وخطوات نحو إمكانيات تجذير أو إعادة تجذير فلسطينية في عوالم جديدة، وأجساد جديد، وأشكال جديدة. اللَّم واللَّملمة هي أفعال وديناميكيات مرنة للحياة والتنفس والتحرك ضدّ الإبادة والإفراط في المحو والاستباحة المطلقة. فقد روى عماد، فرد من الطواقم الطبية، إصراره على تقطيع الأشلاء المعلَّقة على جدران المباني والبيوت بسكّينه وبيديه، لجمعها ودفنها لاحتواء تضحيات شعبه

وتكريمهم "لأنه، لا عيوني، ولا قلبي، ولا جسمي، ولا كلنا هون بطواقم الإنقاذ قادرين نتقبل هذا المنظر." فمشهدية التعليق للأشلاء خلقت إرباكاً خوالجياً-نفسياً عميقاً تطلَّب رفضه بكل الطرق المتاحة، حتى من خلال تقطيعها بسكّينه من أجل لمّها عن الحيطان. كما أن لملمة ميس طاقاتها، وإسكاتها حزنها منحاها اقتداراً عندما أرضعت صغيرة أخرى فقدت عائلتها بأكملها، وصنعت حياة مُلَملِمة ومُلَملَمة وسط الأشلاء، لتنتج نفسها كمرضعة ليس فقط لطفلتها المصابة، بل لطفلة يتَّمها المحتل، حيث شدَّدت: "وهيك يَمَّا صار عندك أخت." كما وأكَّدت حنين، وهي طبيبة غزاوية فقدت إخوتها ووالدها، أن إيجاد كفن لأحبائها، ووضعهم في توابيت صنعتها بيديها من الردم المشظَّى، جاء حتى تلملم نفسها من وقع الصدمة والإرباك والتشظّي والفقدان نتيجة الإبادة. الاقتدار باللَّملمة، بالرغم من الإيلام الذي يسببه فعل اللَّملمة نفسه، يتم من خلال تجميع القوة الداخلية (الفردية والجماعية)، أو ما تيَّسر منها، والبحث عن موارد موجودة وتفعيلها لشحن وتعبئة الطاقة للإصرار على الحياة، أو ما تبقى منها، ما يمكّن من العمل ضدّ كثافة الجراح والموت، ووسط الدمار والحرمان والقمع.

لا شكَّ أن مركزة الأشلاء والتعلُّم من شعبنا الصامد، وكشف الاقتدار باللَّملمة يعني بناء طرق رافضة ومناهضة للاستعمار، ليرفض الموت ويروي قصة الأحياء، حيث أصبحت اللَّملمة بمثابة تدخلات حياتية إحيائية تنجب طاقات حب للحياة وآمالاً عاطفية-نفسية وفعلية، اجتماعياً واقتصادياً. إن الاقتدار باللَّملمة ينتج أفعالاً مناهضة لليتم والتمزيق والتشليئ للتأكيد على الكل الفلسطيني المقاوم وليس المتخاذل، والصامت، والمتفرج، والمتعاون. إنه حراك، وترابط، وفتح إمكانيات جديدة لخلق معانٍ جديدة للأحياء وللحياة والتأكيد على الوحدة للكل الفلسطيني، لبناء حياة كريمة ضدّ الجثث، والتشليئ، والجغرافيات المدمَّرة والمشوَّهة. فنرى الفلسطيني يرفض اقتلاعه من أرضه رغم الخراب ويتوجه ليبدع ويبني أدوات لمساعدته على البقاء، مثل تطوير آليات للتزود بالطاقة الشمسية. كما وأن هناك محاولات جمعية، وليس فقط فردية، للمّ شمل المجتمع، مثل إقامة مدارس متنقلة للأطفال من قبل معلمي ومعلمات غزة الرافضين لليتم التعليمي لأطفال مجتمعهم. وهنا ينعكس الاقتدار باللملمة والذي ولد من الفقدان واللا-شيئ، على تذكير الناجين والناجيات بأن مشهد الموت والتشليئ له سياق، فهو نتاج لسلب في الماضي والحاضر، فضح وطفا على السطح في هذه اللحظة من الإبادة الجماعية. يمثِّل الاقتدار باللَّملمة ركيزة لبناء مستقبل ومستقبلية للكل الفلسطيني. فاللَّم واللَّملمة هو جهد سياسي نفسي، فردي أو جمعي، لإعادة بناء مساحات جديدة من الرفض، والمقاومة، والحب، والبقاء المشترك، والعدالة في النضال من أجل حياة كريمة.

دور مركزة الأشلاء والتوحش: مسار التحليل في الأشلاء النابضة

يؤكِّد فانون في تحليله للعنصرية على حاجة المستعمِر "للحفر في جسد المستعمَر".[20] واستخدمُ تحليل فانون النفسي-السياسي للعنصرية في تعقب نتاج الوحشية، وهذا موضوع شائك وهام لبناء إنتاجنا المعرفي. أي أنه ليس فقط التوحش والحفر في الجسد الفلسطيني ما يعنيني هنا، بل أيضاً التمحور حول الأشلاء والاقتدار باللَّملمة الذي يرسم لنا خمسة مبادئ أساسية في البحث والكتابة والعمل، وهي:

أولاً: إنتاج إبستمولوجيا فلسطينية لفهم توحش الغازي في الإبادة ولغته مثل: المحو L'mchok، والتطهير L'tahir، والمناداة بـ "نكبة ثانية"، والمقصود المحو الكلي للفلسطيني. فالتمحيص بالجسد هو بمثابة معالجة تاريخ الجسد المشلَّأ وسياقه، كركيزة بيولوجية خالصة للوجود والتي كانت محور كتابات منظِّرين مثل ميشيل فوكو Michel Foucault وتنظيره حول السياسات الحيوية biopolitics،[21] وهورتنيز سبيلر Hortense Spiller،[22] وسهاد ظاهر-ناشف،[23] وغيرهم. ومن هنا، أقول إنّ الأشلاء ممتلئة بالحقول والمعاني السياسية، إذ تعكس علاقات السلطة والسيادة وتطبَّقها، وبشكل مباشر من خلال توظيفها في أجساد المستعمَرين، وتعذيبها، وحرقها، وضبطها، كحيّزٍ للاستثمار السياسي ووفقاً لعلاقات القوة والسيطرة. فللأشلاء دور هادف إلى تقطيع الكل السياسي، والكيان الاجتماعي-ثقافي، والأرض، والبيت، والجسد والنفس الفلسطينية، ما يجعل تحليلي المقاوم لكل سياسات التقطيع، فعلاً من أفعال اللَّملمة، ومسلك تكريم، وحب وترابط وتجذير في لملمة الأشلاء، وبناء للبيت الفلسطيني وجسده، ورفض الإبادة.

ثانياً: رفض سيادة الغازي من خلال التمحيص في الجسد المشلَّأ الذي يشكل مجمعاً تحليلياً، ومساراً فكرياً نقدياً يمكِّننا من فهم فلسطين، ويرشدنا كيف نفهمها؟ نبدأ بأهلها: الأم، والأب، والأشلاء... بمعنى أن دراسة الجسد الفلسطيني وأنماط التشليئ في الموت والحياة، والأجساد المحتجزة أو المجمدة، ودفنها في مقابر الأرقام، وتعليق أو تجميد موت الفلسطيني وتحركاته في فضاءات المجتمع وأرضه أو حيزه الجغرافي، لا يعيد فقط صياغة علاقات السيادة بين المستعمِر والفلسطينيين الأحياء والأموات، وإنما يؤكد على دورنا، كمنظِّرين وأخصائيين وتربويين، في تعزيز السيادة على المشاعر وإعادة كتابة الماضي والحاضر لبناء المستقبل للأجيال القادمة.

ثالثاً: إظهار مواقع مقاومة الفلسطيني لهذه السيادة من الأشلاء. أي بكلمات أخرى وببساطة أنه عندما ننظر إلى مشاهد الأشلاء، فإننا نراها في مشهد أكبر وهو لملمتها من قبل الأم والأب والجيران وعاملي الإنقاذ. واللَّملمة هي الفعل الفلسطيني الذي عمل وأكَّد تاريخياً وفي وقتنا الحاضر على لمِّ الشمل والعمل سويَّةً، كما شاعت ترويدة تردّدها عجوز فلسطينية في تسجيل مصوَّر: "شِدُّوا بعضكم يا أهل فلسطين، شدّوا بعضكم"، عندما يكون التشليء هو فعل المستعمِر. واليوم خلال الإبادة، فقد أصبح الوعي والفعل المقاوم وبناء لغة الرفض الفلسطينية ومقاومة المستعمِر ثابتاً مركزياً لا يتزعزع للوصول إلى حياتية بعكس الإبادة.

رابعاً: تفكيك مظاهر الاستعمار عبر الأشلاء، والخرائب، والفراغات، وإعادة الحياة إليها. إن النظر إلى الأشلاء وكثافة الموت، يهدف إلى تمزيق وشرذمة التصور للكل الفلسطيني، حيث، وكما أشار عبد الله البياري (2023) تُعدُّ الخرائب والفراغات سمة مميزة للاستعمار الصهيوني لفلسطين، إذ تحوَّلت مئات القرى والبلدات الفلسطينية بعد سنة 1948 إلى خرائب وفراغات...[24] ولهذا، يجتهد الفلسطينيون لتفكيك مظاهر الاستعمار عن تلك الخرائب والفراغات، وإعادة الحياة إليها. يعتبر هذا انطلاقاً من مبدأ توطين المعرفة، وهو أيضاً أسلوبي في تحدّي منظومة السيطرة الصهيونية على شؤوننا في الحياة والموت، وإنتاج المعرفة، لتكون ذواتنا وتدخلاتنا منتجة للمعاني تعمل على تشكيلنا كجماعة فلسطينية واعية وفاعلة قائمة على حتمية تفكيك الاستعمار والعمل للتحرر.

خامساً: رفض الخضوع للإماتة في الأشلاء ورفض الموت الكلّي. بالاعتماد على هذا، تكشف لملمة الأشلاء لدى الفلسطيني سبيلاً جديداً لإكرام الجسد المشلّأ في الموت. وعند القيام بفعل اللملمة، فإن الفلسطيني الحي الشاهد على الأشلاء والتشليء يحظى باحترام وإكرام أحبائه للمحافظة على كيان كلٍّ نفسي-وجداني للفرد والجماعة. إن لملمة الأشلاء على يد الأحياء في الموت والأمل تمتد إلى آفاق تُخلق عبر الفقدان ليجري توظيفها على نحو يعانق الاستمرارية والحياة بالرغم من التشليئ ويرتبط بالأخلاقيات والمرساة الإنسانية للفلسطيني التي ترفض الخضوع للإماتة في الأشلاء. فالترتيبات الاجتماعية المقاومة عند الإماتة، تعمل نفسياً على التحمل، ورفض موت الكل الجمعي، وعلى إحياء الأحياء.

وكما أشار إسماعيل ناشف، في **صور موت الفلسطيني (2015)**،[25] وسهاد ناشف-ضاهر في "Suspended Death: on Freezing Corpses and Muting Death of Palestinian Women Martyrs" (2018)،[26] وأبحاثي حول احتجاز الجثامين "Necropenology: conquering new bodies, psychics, and territories of death in East Jerusalem" (2015)،[27]... فإن موت الإنسان مرهون بشكل النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه الجسد. فطريقة الإماتة والموت،[28] مثل المرض والقتل والموت الطبيعي، هي نسق سلوكي مثل أي ممارسة اجتماعية أخرى تُشتق من النظام الاجتماعي-السياسي العام. ووضعنا في فلسطين، منذ النكبة إلى يومنا هذا في الإبادة، يشير إلى أن الحياة في فلسطين هي حياة كليَّة، والموت يكشف طرقاً ومعانيَ تحرر مختلفة. ومن هنا، فإن الأشلاء في موتها وتشرذمها، تنبثق من سياق وحبكة لها لُحمة جسدية، ومكانية، واجتماعية-خوالجية، بالرغم من عمل المنظومة الاستعمارية الاستيطانية في إبقاء حتمية موت الجماعة الفلسطينية. يدرك الكل الفلسطيني همجية المستعمِر الصهيوني، ويطوِّر مقاوماته التحررية، عند اللَّملمة، ليغير جذرياً وشمولياً أهداف التوحش، ويتجاوزه كما أشار فانون، وكما أكَّدت الأم التي عادت إلى منطقة في رفح، جنوب قطاع غزة، باحثة عن جسد ابنها، مقبِّلة جمجمته ومُلملِمة عظام ابنها واحدة واحدة، لتقول: "هلقيت رجعت يمَّا ألملمك....لِمّولي عظمه، لِمّولي كل حاجة فيه."[29]

إن الغاية من البحث والعودة إلى الأشلاء هي جوهرية جداً، لأنها تنتج استمرارية في البقاء، ومعانيَ تعمل مجتمعة، وتشكِّل مجتمعة، كما أشارت عبير عثمان في "Fathers in and Against Pain: Father's Interruptions of Settler-Colonial Technologies of Loss" (2022)،[30] إلى الكل والكيان والحب الفلسطيني. عند النظر في الأشلاء نكشف فعل لملمتها بالحب، كما أشارت سارة لحمود "On love, the Palestinian way: Kinship, care and abolition in Palestinian feminist praxis" (2023)[31] وديفين عطا لله "Beyond grief: Decolonial love for Palestinian life", (2023).[32] واللَّملمة تمثِّل أولاً تأكيداً على الوجود الحيّ النابض، وتمثّل ثانياً، العودة إلى كلية الجسد والإنسان والأرض لإعادة إنتاج الفلسطيني ذاتَه الجماعية، كما يقول إسماعيل ناشف في **صور موت الفلسطيني** (2015)،[33] وخالد عودة الله في "معهد أبو كبير كجهاز استعماري" (2015)،[34] وتدعو ثالثاً، للعمل على تحرير الذات من التشليء، وبالتالي تحريرها من قبضة الاحتكار الصهيوني لجسدها وجغرافيتها ونفسها ومشاعرها كما في تنظيرات اسطفان ولارا شيحا،[35] أي انتزاع السيطرة على موت الفلسطيني، والاستثمار في اقتصاد سياسي ونفسي ووجداني للحياة، للتحرر الوطني.

عند لملمة أشلاء أحبائك يعني أنك تنتزع من النظام سيطرته على إدارة شؤون الموت الجمعي الفلسطيني، ليؤكد الفلسطيني أو الفلسطينية حبه وإنسانيته بلملمته موتاه أو شهداءه، ورفضه لسياسات محو عدوه له. وهذه اللَّملمة تشكل آلية تنبيه وجرس إنذار وتفزيع للقلق الوجودي في المشروع الصهيوني الذي قلب فلسطين بأشلائها، وأجساد شهدائها، وبيوتهم، وأرضهم إلى سجن كبير وآلية للتطويع والإخضاع ضدّ الشعب الفلسطيني. فاللَّملمة هي إعادة تشكيل الإنسانية الخوالجية الفلسطينية الكلَّ الفلسطيني وهيبته في عيون أهله كولادة واستحداث للوعي النفسي الفلسطيني وربطه بالذات الجمعية الفلسطينية. إن قراءتي من الأشلاء هي أيضاً معاداة للحصرية والتفرُّد exclusivity and obsessivity الناتجة عن استخدام متطرف للثيولوجيا الأمنية والمقدسة sacralized and securitized التي يتبناها كيان الاستعمار الاستيطاني في "إسرائيل" ومناصروه في العالم، لأعتمد على باحثات ومنظِّرات من الجنوب.

تلغي القراءة من الأشلاء الارتباك الحاصل بين وحشية الحقيقة المجرمة ومشهدية الإبادة المشلَّأة من ناحية، وبين الكابوس النفسي-الخوالجي، أي بين الواقع وما فوقه، من ناحية أخرى. وتتداخل الدماء والألم، والأجساد المتناثرة، بالصور والأصوات الصارخة المستغيثة، والأزمنة والأمكنة المهدَّمة والمقطَّعة، وتغدو الأشلاء المتألمة متراصفة ومتجاورة ومتباعدة على حد سواء. ففي الأشلاء، يضطرب المعنى ويفقد معناه من شدة الفقدان والألم. ولعلَّ التوحش اللانهائي والتاريخي والمستمر للصدمة والاقتلاع القاصد زعزعة المستقر والثبوتي في عالمنا الفلسطيني الجنوبي، يفقدنا المعاني، ويطال الذات المنتجة للكل الرافض للتشليء، لترفض انعدام، أو بالأحرى إعدام، المعنى بهدف تدشينه من جديد من خلال إعادة تشكيل علاقات السلطة في الزمان والمكان وقد تشلّأت حدودهما.

فبالرغم من العبء النفسي-الجسدي في النظر إلى الأشلاء وقراءة الموت والإماتة اللا متناهية، فإن الاشتغال بالتشليئ بصفته سؤالاً نظرياً ذا طابع أخلاقي يركز النظر على الاقتدار باللَّملمة في مواجهة الموت خلال الإبادة. ذلك أن قدرتنا في لملمة الأشلاء لإعادة حياكتها، ورفض مجهولية موتانا وذاكرتهم، وأسمائهم، وأعمارهم، وجنسهم، وأسباب قتلهم، وأماكن دفنهم المشتت، ويقينية وجود أشلائهم الجليلة ليس كرفات، كحشد موتى لا مرئي، فاقد للأثر، وإنما ككيان متكامل للكل الفلسطيني... تعيد إنتاج الشأن العام الإنساني والأخلاقي للقضية، ويرفض المجهولية، ومشهدية الإماتة، وكتابات وسياسات المحو والإبادة.

دور العاملين في الصحة النفسية في ظل الإبادة

تواجه الخدمة الاجتماعية اليوم تحديات جمّة في خضمِّ حرب نفسية-اجتماعية-اقتصادية-سياسية، وفي ظل عجز قاسٍ حيال معايير ومهنية المهنيين في العالم الغربي والعربي والفلسطيني، وضمن سياق اللا-حراك المَرضي-التواطئي، وفي خضمّ اللا-حراك المجتمعي حتى هنا في الوطن-فلسطين. فقد بتنا نرى المجتمع المفصول، والمربّط، والملخوم، والمتخاذل، واللامبالي، والكسلان، والخائف، وفاقد القدرة على الاختيار والأمل والإيمان إلى آخره...

وهنا، علينا النظر من خلال مفاهيم علم النفس التحرري ومساهمة الإرث النفسي-الاجتماعي في مساندة وبناء نزعة مجتمعية sociality محررة، تعمل من خلال الإرث الاجتماعي-السياسي-النفسي في تكوين النسيج الاجتماعي القديم-الجديد المتواصل. ما نراه اليوم هو مجتمع منفصل عن الواقع disassociate/detach يلزمه أن يعود ويرتبطassociate/link بنفسه ومع أشلائه، حيث إن سماته المجتمعية وخطوطه الجمعية البارزة (في معظم الأحيان) تهاجم من خلال حرب نفسية منظَّمة لإحداث شلل وتشويه اجتماعي وعجز.

وللخروج من دائرة العجز، والوصول إلى الاقتدار، نحتاج إلى مرساة، إلى معلوم، والمعلوم يتفاوت من منطقة إلى منطقة، ومن ظرف إلى ظرف، خاصة في خضمّ العقوبات الاستعمارية. والمعلوم، مثل الأكل، والعمل، والحياة... مُهدد. والتاريخ الجسدي-النفسي-العصبي لفقدان الأرض، والبيت، والأحباب حاضر وبقوة ويُحدث إسقاطات نفسية للتجارب الآنية، ليكون الجهاز العصبي متأهباً كل الوقت، والجهوزية الجسدية أو الخلوية مبتورة مجتمعياً. وللتغاضي عن الحرمان وتقطيع الأوصال، يستمر الفرد والجماعة بممارسة الحياة وكأن الأمور عادية، ويعجز عن مواجهة التشليء والفقدان والتوحش.

عندها يطرح السؤال: ماذا يحدث بالخلايا الخوالجية الحامية للإنسان والمجتمع؟ ماذا يحدث للجسد، وللنفس، وللبيت، وللعائلة، وللمهنة، وللمهنية؟ ماذا يحدث للمركبات النفسية عندما يكون الواقع هو واقع إماتة لمنظومة تعمل على إبقاء الفلسطيني في حيّز إماتة (لنموت أكثر، ليفجروا، ليشلِّئوا، ليقتلوا أشلاءنا)؟ ويعود السؤال: كيف نلملم طاقاتنا في واقع إماتة؟ إن البحث عن مرساة اجتماعية-أخلاقية، وبالمرساة أعني ثابتاً يخلق ويبدع حيّز تحرر مقاوم للإماتة، ويعمل علي توليد وعي معمق، وعمل جمعي، وحتى عملية اللجوء للبعض (في مخيمات ولا مخيمات، وسجون، وبيوت، وحارات، ومهن)... لمقاومة الحرب النفسية-الفعلية الدائمة على الوجود والكل الفلسطيني ولبناء اقتدار محدث. هنا، أريد أن أمركز "الكل الفلسطيني" ضدَّ التشليئ، وهو جزء من الذات الباحثة عن مرساة، العمل سوية. ما أود أقوله إن القضية ليست مرساة يمكن أن نحوزها، إنما مرساة يطورها المجتمع بالمعنى الكلي collective ضدّ العجز والتشريد والإقصاء المستمر، وعبر التحرر من خلال بناء تجارب جمعية، ومراكمة لتجارب اللُحمة المجتمعية والمقاومة والصمود كما عشناها في الانتفاضتين الأولى والثانية، ومسيرات العودة، وإحياء ذكرى النكبة، ومعركة الكرامة، ونكبتنا وإبادتنا الحالية. فالمجتمع بتاريخه، وبفقدانه، وبتجاربه، وبحرمانه، وبإسكاته، وبإقصائه، وبمكتسباته، هو مرساة العمل الاجتماعي.

حرب الإبادة والمجتمعية الفلسطينية

بالعودة إلى سؤال: المجتمع شو ماله؟ مفصول؟ مربَّط؟ لا مبالي؟ كسلان؟ فاقد القدرة على الاختيار؟ فاقد الأمل والإيمان؟ إلى آخره... من المهم والضروري الأخذ بعين الاعتبار الصدمات النفسية، والتاريخية (الجمعية)، والاستعمارية المتتالية والمتزامنة. هنا لا بدَّ من التركيز على دور الأخصائي الاجتماعي. ولذا،

أرغب بالعودة إلى فعل اللَّملمة في لملمة الأشلاء، ودورنا كعاملين في الصحة النفسية في التمركز حول الجسد/الأشلاء، والترابط، والثبات الاجتماعي وتشخيص الطاقات وبناء اقتدار في هذه الظروف الإبادية.

إن طرح دورنا في سياق تعزيز الاقتدار باللمِّ واللَّملمة هو تأكيد على أشكال سيادتنا على أشلائنا (على الوعي والنفس والجسد الفردي والجمعي) من خلال بناء استمرارية حياتية ضدّ القوة الإبادية. فدورنا يكون ببناء مساحات ترابط، وعمل مشترك، وانطلاق جمعي وعاطفي وسياسي-اجتماعي وفردي لمناهضة الإماتة والتيتيم والإثكال والتي تتجسد من خلال تمكين وإنتاج مسارات جديدة لمناهضة القوة والألم والفقدان. يمثل تعزيز الاقتدار واللَّملمة جمعاً لطاقات الاستمرار والاستمرارية، ليعود الفرد وجماعته إلى الحياة (ضدّ التجويع، والإيلام، والتفخيخ، والقتل، والهندسة الاجتماعية الماحية للوجود)، والصلاة والروحانيات والتنفس ليعمل في مقاومة الموت المكثف. تفتح اللَّملمة آفاقاً نقدية للحياة في خضمّ الإبادة، وتحمل تقنيات، وسرديات، وملاجئ من الحب، والحفاظ على الكرامة.

فاللَّم واللَّملمة هي مسارات وأعمال وخطوات وحراكات نحو إمكانيات تجذير وإعادة تجذير فلسطينية في عوالم جديدة، وجسد جديد، وأشكال جديدة. فكيف نتخلص من ملامح الضائع، المشلّأ اليتيم الخائف والعاجز، بالرغم من الصدمات الكولونيالية، المستمرة والمقيمة في زمن النكبة، حيث تشلئ الأجساد، وانفصام الأزمنة والأمكنة والجغرافيات ينهك السرد والسرديات؟ هنا أؤكد على أهمية العمل سوياً على إبداع مسارات للعودة إلى الذات المجذرة بالماضي، الواعية لمكنونات الحاضر، والموجهة للمستقبل. وسؤالي المركزي اليوم، هو كيف نشبك الأخصائيين الاجتماعيين بشغف المقاومة واللاطاعة، وعشق أشلاء أحبائنا، وأصواتهم، وخطاهم، ولملمتها، لنولّد مرساة تثبت خطانا في تعزيز مجتمعنا للحياة المستقبلية؟

وفيما يتعلق بالمرساة، لا يمكن مقاومة الإجرام الصهيوني في إنتاج الأشلاء الجسدية-الجغرافية-الاجتماعية ومحاربة تقطيع الأوصال الفلسطينية دون تثبيت مرساتنا. ومرساة عملنا المقاوم تعتمد على توثيق التحالف بين الحياتية الموطَّنة بهويتنا والحراك المستقبلي البنَّاء، الرافض لكيّ الوعي، والإماتة، والمؤكِّد على بناء فضاءات للتحرر الذاتي والجمعي فكرياً، وثقافياً، وسياسياً، ونسوياً.. ولتثبيت مرساتنا هناك حاجة لانتفاضة إبداعية إصرارية، مقاومة للتشليئ، منتجة للحياة في مساحات اليتم والإماتة والثكل كما تعلمنا من اللملمة عند أطفال غزة وناسها، حيث اخترق فيها الغزّيون دائرة الإماتة التي تعمل على إعادة إنتاجهم أمواتاً، باستخدام جسدهم في مسيرات العودة كجسد يحمل حياتية، وسيادة، مفعم بالطاقة الإبداعية المضادة للسياسة المشلِّئة. هناك حاجة للإبداع في خلق حياتية، للمضي قدماً، مثل ما تعلمناه من العاملين في المجال الصحي، والدفاع المدني، وعمل الصحفيين، والمصورين، والشعراء، والفنانين، والمعلمين، والآباء والأمهات في عملهم نحو الإبداع، لبناء ذوات مُلملِمة للشمل، جامعة، تعمل فيها التدخلات الجماعية والفردية معاً لبناء المستقبل. هذه الانتفاضة الحياتية الفكرية، تدخُّلية، إبداعية تجسِّد نوعاً من التحالف بين الحياتية والحراك البنَّاء، ضدّ الإماتة، لبناء فضاءات للتحرر الذاتي والجمعي، للتدخل ضدّ حالة الترويض والإسكات، والشلل واليتم والتشليء.

هنا، أستحضر ردود فعل أهلنا في غزة بأعمالهم الإبداعية المنتجة للحياة والحيوية بالرغم من الإماتة، مع فكر فرانز فانون الديناميكي-الثوري، والمجذَّر بحتمية الإبداع والحركة والصيرورة، لأشدد على أهمية التزامنا أخلاقياً بمقاومة الاحتلال والإذلال والعبودية، ونزع الاستلاب للانعتاق من جميع أشكال الاضطهاد. فـ"التقدم ولو خطوة إلى الأمام"، كما أشار فانون، والانفصال ورفض عالم الاستعمار الاستيطاني يبنى على تطوير مثقفين وأخصائيين اجتماعيين مشتبكين، يتشبثون بالتفكير والعمل والحراك الجمعي لإنضاج وعي مناهض للاستعمار يقارع النقاشات حول الأشلاء والجسد والأرض، ويعزز دور المثقف، والمناضل، والمفكر، والمنظر، والفاعل، والممارس، والمحرك السياسي-الاجتماعي، والذي يرفض الفصل بين التحليل الفردي والحركات الجمعية (بين الحياة النفسية، والنضال الجسدي، والكولونيالية ومسائل النيوكولونيالية).

خاتمة

جاءت هذه الورقة لتتساءل كيف يمكن فهم التوحش الصهيوني الإبادي ضدّ من هو حيّ، ومن هو مشلّأ؟ كيف يمكننا إنتاج معرفة مسؤولة واضحة تقرأ وحشية الدولة وتتعمق في رفض أهل غزة للتوحش، لتؤكد أن بوصلتنا الأخلاقية مجذَّرة بأصوات أهلنا الباحثين والمتسائلين عن إجابات لأجيالنا الصامدة، ومستقبلنا، في ظل سياسات الإماتة والوحشية اللامتناهية والتوحش؟ ومن هنا أتت مركَزة هذه الورقة مفهوم الأشلاء والتوحش بهدف زعزعة التصوُّر الكلي للموت والإماتة والمحو للفلسطيني كما خططه الصهيوني المستعمِر، وذلك حتى أجعل من مسلكيات الحميمية، والحب في لملمة الأشلاء، ورفض التوحش، مجمَّعاً ومساراً فكرياً يمكِّننا من فهم فلسطين، أي أن نفهمها من خلال أهلها.

تشير الورقة إلى دور العاملين والعاملات في مجال الصحة النفسية والعمل الاجتماعي لتؤكد على أن الفقر الفكري، وفقدان اللغة والوعي الموطَّن، والغربة عن الذات والكل والزمان والمكان، يشلّئ ويساهم في تعزيز مسارات التوحش على أنواعه المختلفة، ويزيد من أشلائنا. ونحن كأخصائيات، وباحثات ومنظّرات ومتدخلات نرجع دائماً إلى ما علمنا إياه أهلنا، وهو العودة إلى الألم الفلسطيني، العودة إلى الأشلاء لبناء الطاقات، ولحماية الكل الفلسطيني، والعمل المقاوم حتى نتجرأ على إحياء واقع أفضل يرفض الإماتة اللامتناهية والمكثفة بالإبادة، ويخلق مستقبلاً فلسطينياً مجذراً، وململماً، وحراً. وإلا فكيف يحتمل الأخصائي الفلسطيني فهم وبناء دوره ونفسه في مرآة الزمان والسياق الفلسطيني؟

إن مشروعنا الجماعي، ومشروعي الفردي أنا محدِّثتكم، ومرساتنا في نهاية المطاف هو التحرر من الإماتة الإبادية، والبحث عن الحياة، وتفكيك الاستلاب (disalienation) ومقاومته بكل أشكاله: الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والنفسية. ما أود قوله هو إن دورنا يتطلَّب الجمع بين الالتزام بالتحرر الاجتماعي والالتزام بالتحرر النفسي للأفراد والمجتمع، والتفكير بالأشلاء واللَّملمة، كتفكير في الحرية وبناء هياكلها ومساراتها المتعددة

باعتبارها رفضاً ونزعاً للاستلاب.... إنما يجري ضمن سيرورة تاريخية ونفسية-اجتماعية، وسياسية بالضرورة. لا يمكن طرح عمل اجتماعي-نفسي موطَّن دون النظر إلى وترسيخ الخسائر والآلام الجسدية، والاضطرابات النفسية-الاجتماعية الناجمة عن الإبادة والنكبة المستمرة، من هنا يأتي محور أساسي في عملنا، ألا وهو دمج الإجراءات الثلاثة التالية:

أولاً: التدخل العلاجي الموطَّن ورفض الاختزالية العلمية البيضاء النيوليبرالية واقتصادياتها، من خلال النأي عن علاجات مؤسساتية تُفقد المجتمع وأفراده الحرية، وبناء طرق تدخُّلية من داخل البيئة الثقافية-الاجتماعية-التاريخية، حتى نمتنع عن بتر، أو عقاب، أو استبعاد، أو عزل المجتمع والفرد عن بيئتهم، بإعادة السيادة على الحياة والتحكم بها.

ثانياً: بناء إبستمولوجيا مجذّرة في التاريخ الحاضر والمستقبل مبنية على البحث العلمي والممارسة الاجتماعية المبتَكرَة، والنقد العلمي الراديكالي الرافض للهيمنة.

ثالثاً: النضال الشعبي للتحرر، وهنا يتوجب الالتزام بالتحرر الاجتماعي-السياسي الذي يستلزم تحرراً نفسياً كما يبرز اليوم وبقوة في قضايا الأسرى، والأطفال، والإبادة الإنجابية (reproductive genocide)، وذلك حتى نعيد للحياة، والموت، والقيم الإنسانية حرمتها، وحتى نعطي الأولوية القصوى لتحقيق التحرر الجماعي والتركيز على كيفية الارتقاء بالوعي الجماعي والعمل الجمعي المنظَّم، لمقاومة ومعالجة حالة الاتكالية وانعدام الحيلة واللا-حول.

إن إعطاء الأولوية القصوى لتمكين المضطهَدين، عبر العمل الجمعي المنظَّم والواعي، يهدف إلى استرداد التاريخ الفردي والجمعي الذي تمَّ حذفه وإعاقته بواسطة الاضطهاد والاستعمار والتشليئ اللامتناهي. فالتمحور في أسباب التشليئ، والعمل على إنهاء الاستعمار ليس بأمر سياسي فحسب، بل هو تحوُّل نفسي-اجتماعي عميق من اللاحول للإبداع - ووسيلة لمداواة جراح القهر. ما أقوله إنه لا يمكن للأخصائي أن يختبئ في "مساحات أمان" وصمت، وإذعان، وإلا أصبحت شرعنة تمزيق الذات أسلوباً لـ"حفظ الذات"، وأصبحت مطحنة الاستيطان الاستعماري وإجرامه مساراً "آمناً" للانتحار والإبادة الذاتية والجمعية الفكرية والفعلية للهوية. أن نحب أطفالنا وأهلنا وجرحانا وأسرانا وواقعنا، وأن ننظر بتمعُّن إلى الأشلاء، لا بمازوخية، إنما هو تحرر للبحث عن الحياة، وكشف الواقع، والحقيقة بإنسانية، ووضوح فكري، ومقاومة، وبناء دوائر مقاومة فكرية، وحراك في الحقل، واشتباكات تحليلية، والعمل على توسيعها مع مرور الزمن. إنها مقاومة لا تستهدف إعادة الإنتاج الفكري الغربي الكاذب، بل تسعى إلى خلق شبكات حراكية تحليلية خلّاقة، لأن هناك إشكاليات معرفية وسياسية فضحتها الإبادة. وحتى نوقف الوحش عن توحشه، يجب العمل سوياً، على بناء ململَم، وإنتاج معرفي يقوّض عمل الوحوش ومنابرها الإبادية ويبني الحياة، مؤكدين على أخلاقياتنا الفلسطينية المبنية على أخلاقيات الحياة، واللملمة، ومقاومة منظومات الإماتة

الإحالات

[1] Joseph Pugliese, "Geocorpographies of Torture," *ACRAWSA*, Vol. 3, No. 1 (2007): 1-18.

https://research-management.mq.edu.au/ws/portalfiles/portal/16909023/mq-5544-Publisher+version+%28open+access%29.pdf

[2] Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth* (New York: Grove Press, 1961).

[3] Hussein Abdilahi Bulhan, *Frantz Fanon and The Psychology of Oppression* (New York : Plenum Press, 1985).

[4] Rita Giacaman, "Reframing Public Health in Wartime: From the Biomedical Model to The 'Wounds Inside,'" *Journal of Palestine Studies,* Vol. 47, No. 2 (2018): 27–9 .

Rita Giacaman, "Social Suffering, The Painful Wounds Inside," *American Journal of Public Health,* Vol. 107, No. 3 (2017): 357 .

[5] Rema Hammami, "Precarious Politics: The Activism of 'Bodies That Count' (Aligning with Those That Don't) in Palestine's Colonial Frontier," In J. Butler, Z. Gambetti, & L. Sabsay (Eds.), *Vulnerability in Resistance* (Durham, NC: Duke University Press, 2016): 167-190.

[6] عبد الرحيم الشيخ، "الزمن الموقوت: نكبة فلسطين ومسارات التحرير،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 118 (2019): 16-26؛ عبد الرحيم الشيخ، "المكان الموازي: رسم الزمن في فكر وليد دقة،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 135 (2023): 187-220؛ عبد الرحيم الشيخ، "'الجغرافيا السابعة' الاستشهاديون، والشهداء، والكابو، في برزخ وليد دقة،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 139 (2024): 11-45؛ عبد الرحيم الشيخ، "الشهداء يعودون إلى رام الله،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 133 (2023): 128-155؛ عبد الرحيم الشيخ، "المقبرة الفلسطينية الحية: التاريخ المفاهيمي،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 134 (2023): 85-120.

[7] وليد دقة، **صهر الوعي أو في إعادة تعريف التعذيب** (بيروت: الدار العربية للعلوم–ناشرون، 2011)؛ وليد دقة، "ما بعد صهر الوعي: ملهى الإغراء والإغواء،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 139 (2024): 89-111.

[8] Samera Esmeir, *Juridical Humanity: A Colonial History* (Stanford: Stanford University Press, 2012).

[9] Samera Esmeir, "1948: Law, History, Memory," *Social Text,* Vol. 21, No. 2 (2004): 25-48.

[10] Nasser Abourahme, *The Time Beneath the Concrete: Palestine between Camp and Colony* (Durham: Duke University Press, 2025); Hashem Abushama, "Zionism's Impending Defeat: Israel's Foundational Impasse and The Perpetually Incomplete Conquest," *Antipode Online,* 20 June 2025, accessed 25 July 2025.

https://antipodeonline.org/202520/06//zionisms-impending-defeat/

[11] Rana Barakat, "Writing/Righting Palestine Studies: Settler Colonialism, Indigenous Sovereignty, and Resisting the Ghost(s) of History," *Settler Colonial Studies,* Vol. 8 No. 3 (2018): 349-363.

[12] باسل الأعرج، **وجدت أجوبتي: هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج** (بيروت: بيسان للدراسات والنشر، 2018).

[13] Aníbal Quijano, "Coloniality of Power and Eurocentrism in Latin America," *International Sociology,* Vol. 15, No. 2 (2000): 215-232.

[14] Jasbir K. Puar, *The Right to Maim: Debility, Capacity, Disability* (Durham, Duke University Press, 2017).

[15] Achille Mbembe, *Necropolitics* (Durham: Duke University Press, 2019).

[16] Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," *Journal of Genocide Research,* Vol. 8, No. 4 (2006): 387-409.

[17] Rema Hammami, Ibid.

[18] Miriam Berger, Evan Hill and Hazem Balousha, "Israel's assault forced a nurse to leave babies behind. They were found decomposing," *The Washington Post,* 3 December 2023, accessed 14 June 2025.

https://www.washingtonpost.com/world/202303/12//gaza-premature-babies-dead-nasr/

[19] "Int'l committee must be formed to investigate Israeli army's abandonment of five infants, now dead, alone in Gaza hospital," *ReliefWeb: A Common Service for Humanitarians,* 29 November 2023, accessed 14 June 2025.

https://reliefweb.int/report/occupied-palestinian-territory/intl-committee-must-be-formed-investigate-israeli-armys-abandonment-five-infants-now-dead-alone-gaza-hospital-enar?utm;

"174 Palestinian children in Gaza killed by relentless Israeli attacks overnight," *Defense for Children International – Palestine,* 18 March 2025, accessed 14 June 2025.

https://www.dci-palestine.org/174_palestinian_children_in_gaza_killed_by_relentless_israeli_attacks_overnight

[20] Frantz Fanon, "The Fact of Blackness," in *Black Skin, White Masks,* C. L. Markmann, trans, (109–140) (New York: Grove Press, 2008), 110.

[21] Michel Foucault, *The Birth of Biopolitics: Lectures at the Collège de France, 1978–1979,* G. Burchell, trans. (London: Palgrave Macmillan, 2008).

[22] Hortense Spillers, "Mama's Baby, Papa's Maybe: An American Grammar Book," *Diacritics*, Vol. 17, No. 2 (1987): 65-81.

[23] Suhad Daher-Nashif, "Colonial Management of Death: To Be or Not to Be Dead in Palestine," *Current Sociology,* Vol. 69, No. 5 (2012): 709-727.

[24] عبد الله البياري، "عن الخرائب والفراغ: محاولة أُخرى لفهم الحالة الكولونيالية في فلسطين،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 134 (2023): 145-158، 134.

[25] إسماعيل ناشف، **صور موت الفلسطيني** (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

[26] Suhad Daher-Nashif, "Suspended Death: On Freezing Corpses and Muting Death of Palestinian Women Martyrs," *Third World Thematics: A TWQ Journal,* Vol. 3, No. 2 (2018): 179-195.

[27] Nadera Shalhoub-Kevorkian, "Necropenology: Conquering New bodies, Psychics, and Territories of Death in East Jerusalem," *Identities,* Vol. 27, No 3 (2020): 285-301.

[28] Nadera Shalhoub-Kevorkian, "Criminality in Spaces of Death: The Palestinian Sase Study," *British Journal of Criminology,* Vol. 54, No. 1 (2014): 38-52.

[29] "أم فلسطينية تعثر على عظام ابنها الوحيد الذي استشهد بقصف إسرائيلي،" **الجزيرة نت**، 21 كانون الثاني 2025، شوهد في 15 تموز 2025.

https://www.facebook.com/watch/?v=934665832132571

[30] Abeer Othman, "Fathers in and Against Pain: Father's Interruptions of Settler-Colonial Technologies of Loss," *Af-filia*, Vol. 38, No. 2 (2022): 244-262.

[31] Sarah Ihmoud, "On Love, the Palestinian Way: Kinship, Care and Abolition in Palestinian Feminist Praxis," *State Crime Journal,* Vol. 12, No. 2 (2024):206-224 .

[32] Devin Atallah, "Beyond Grief: Decolonial Love for Palestinian Life," *Journal of Palestine Studies,* Vol. 52, No. 4 (2023): 70-75.

[33] ناشف، **صور موت الفلسطيني**، مصدر سبق ذكره.

[34] خالد عودة الله، "معهد أبو كبير كجهاز استعماري: جثامين الشهداء كأداة للعقاب والضبط الاستعماري في فلسطين،" 9 تشرين الثاني 2015، شوهد في 20 تموز 2025.

https://www.youtube.com/watch?v=1qnrnVo_5nc

[35] Lara Sheehi and Stephen Sheehi, *Psychoanalysis under Occupation: Practicing Resistance in Palestine* (London: Routledge, 2022).